

## إسرائيل وشرف الدول العربية

حدثٌ معينٌ لفت نظري منذ فترة، أو بالأحرى أعاد لفت نظري إلى هذا الارتباط الوثيق بين شرف أيّ دولة عربية وعلاقتها بإسرائيل، وهو إرسال حسن نصر الله لطائرة استكشافية بلا طيار لإسرائيل في فترة كان يعم فيها الهدوء بين الطرفين، وبعدها لاحظنا إطلاق تهديدات لا مبرر لها لإسرائيل بين الفينة والفينة كلما قلت شعبيته. لأنه أراد استرجاع شيءٍ من ثوب الشرف الذي كان مسبغاً على حزبه كحزب مقاومةٍ يحترمه العالم العربي قبل أن يمزقه بشار فلا يبقى منه إلا ما يشبه ورقة التوت؟

غير أنه لم يكثرث أحدٌ بذلك الحدث، ما يدل على أن العلاقة بإسرائيل ليست المعيار الوحيد للشرف، فهناك أيضاً المواقف التي تتخذ آزاء ما يحدث. ومع ذلك فعبر السنين أصبح مقدار شرف كل دولة عربية أو إسلامية يقاس بمدى علاقتها بإسرائيل: هذه الدولة لديها اتفاقات مع إسرائيل فلا بد أنها قليلة الشرف! أما تلك فلها محاولة لضرب إسرائيل، لذا فهي في قمة الشرف! وعليه، أصبحت الدول العربية والإسلامية تعير بعضها بعضاً في حالة الخلافات بعلاقتها بإسرائيل وتهدد بكشف ملفاتها، تماماً كما يفعل الأطفال عندما يتشاجرون فيهددون بعضهم بعضاً بإخبار والديهم بما يخفون عليهم من أفعال لا يرضونها.. ليس الدول العربية فحسب بل وحتى فرنسا أدركت هذه الصفة في العرب فأفشت سراً للنظام السوري يتعلق بعلاقته بإسرائيل عندما غضبت منه!

هل أصبحنا نعالج بهذه الإتهامات تائب الضمير الجماعي لنسيان القضية الفلسطينية، التي يبدو أن الدول العربية لا تنتبه لها فجأةً إلا عندما تحدث مواجهة مسلحة بينها وبين إسرائيل كما حدث مؤخراً.. أو عندما يحدث ما يغضب إحداها من الأخرى، فتخرج هذه لتكشف ما فعلته تلك منذ سبعة أعوام أو منذ عشرين عاماً مع إسرائيل.

ومع ذلك فالعلاقات مع إسرائيل لا تزال مستمرة! دول الشرق الأوسط الأصغر مهددة من قبل دول الشرق الأوسطية الأكبر، ومن ثم مضطرة إلى الإستجداد بالديناصور البعيد المسمى أمريكا. ودول الشرق الأوسط الأكبر حجماً أيضاً تخاف من زميلاتها ومن الدول الأصغر عندما تجتمع أو تستجد بأمریکا. أو ربما بدا لإحدى هذه الدول الأكبر أن تنجز شيئاً من خلف ظهر شقيقاتها لا يتم إلا بمساعدة

دولة ذات قوةٍ وهيمنة، ومن يمتلك هذه المواصفات غير أمريكا؟ وأمريكا بالطبع لن تمد يد العون لمن يعادي عصفورتها الصغيرة الزرقاء إسرائيل، التي مع صغرها تمتلك بطريقةٍ ما بعض أضرار التحكم فيها..

ومن ثم فكل دول الشرق الأوسط كبيرتها وصغيرتها تتواصل مع إسرائيل بشكلٍ خفيٍّ أو نصف خفيٍّ من أجل مصالحٍ إقتصادية أو سياسية أو حتى إرضاءً لأمريكا. ومن هنا تصبح المسألة ليست مسألة من يتعامل مع إسرائيل، بل من يستطيع أن يخفي ملفات تعامله مع إسرائيل أطول مدة ممكنة!

ولا أعلم لماذا ما تزال كل الدول الشرق أوسطية تلوم كل الدول الشرق أوسطية على التعامل مع إسرائيل بعد أن اتضح أن الكل تقريباً يتعامل معها، مهما صعب الوصول إلى الملفات لإثبات هذا التعامل. ولا أعلم أصلاً لماذا ما تزال العلاقات معها خفية بعد أن فُتحت كل الملفات تقريباً..

يبدو أن إسرائيل في الوقت الراهن -على بغاضتها- أمرٌ واقع لا قبل للدول العربية بنكرانه. والحل الوحيد الأوحده لفصل الشرف العربي عن العلاقة بإسرائيل هو التصالح مع دول الجوار العربية والإسلامية والالتفاف حول بعضها بعضاً للاستغناء عن أمريكا والفتورة الإسرائيلية. ولكن ذلك مستحيلٌ لأن الأحقاد بلغت مبلغاً لا يمكن معه إزالتها ولو بعد سنين. وكل تعاليم ديننا في التآخي تختفي تماماً من الأذهان بشكلٍ ما عندما يعلو صوت الأنا، فتزداد جُدر الكراهية علواً وتتسارع خطواتنا إلى أحضان أمريكا ومنها.. إلى إسرائيل.

ولا أظن أن هذه المسألة ستنتهي إلا بأحد حلين:

أولهما أن يتجه العالم الإسلامي ثانياً نحو التآلف والتآخي ليصبحوا أمة واحدة متحابّة كما كانت، بحيث لا تخاف دولة جاريتها فتلتمس الحماية منها بموالاته إسرائيل بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، ولا أظن هذا الحل هيناً مع وجود كل هذه "الأنوات" المتضخمة..

وإما أن نخلع بقية الأفتنة ونقبل بدولة فلسطين بحجمها الحالي ونوقف كل أنواع المقاومة كما قال عباس، الحقيقية منها والمسرحية، ونتقبل إسرائيل كدولةٍ ما لم تتحرش بالأقصى الشريف وحق الفلسطينيين في القدس، وتختفي المعايير بإسرائيل حتى إشعار آخر.

وليصبر المتعطشون للقتال من الذين يفجرون أنفسهم فيجرح إسرائيلي أو اثنان فيقتل على إثر ذلك عشرات الفلسطينيين ويسجن المئات منهم، فقد يظهر ما يستوجب القتال يوماً والعرب أقوى وأقدر على الدفاع عن أنفسهم. أما الآن فإن ضرب إسرائيل ولو بورقة مهترئة سيؤدي إلى قطع يد ضاربها بصاروخ، وعندما يحدث ذلك سيرفع الجميع أيديهم عن الموضوع ويكتفون بهز رؤوسهم استنكاراً، وستبقى الدماء الفلسطينية نازفةً بلا طائل، وسيظل الدم العربي رخيصاً في نظر العالم.. وستظل العلاقة بإسرائيل وحدة قياسٍ سخيفة للشرف العربي..

د. خليفة